بقلم الاب لامنس اليسوعي

٢

(تتمة)

لقد تقدّم لي ان ذكرت نونوز ، صاحب الملحمة الضخمة في ديونيسوس ؛ وهو ، والحقّ يُقال ، اقدر من تغنى بجمال بيروت الساحر واقربهم الى حرارة الاخلاص وبلاغة الالفاظ والتلاعب بتنسيق الجناسات والمحسّنات البيانية . فلم يبقَ لي الا ان اقدّمه اليكم ، وهو واجب صعب اذ لا نعرف عن هذا الشاعر الكبير الّا اسمه ووطنه . فقد وُلد ، على الارجح ، في القرن الرابع للمسيح ، في مدينة پنوپوليس المعروفة اليوم بأخميم من صعيد مصر . وكان في اول امره وثنيًّا ، الا انه اهتدى الى النصرانية . اما ملحمته الكبيرة فقد خصّها بالاله ديونيسوس او باخوس فذكر فيها جميع مآتيه البطلية وولّد من ذلك مجموعة ضخمة من الابيات لا يتناولها المطالع الا ويشعر بان الشاعر اراد ، دون شك ، ان يعارض هوميروس . ليس في الاوديسية الّا ٢٤ نشيدًا ، اما قريحة نونوز فلا تقف الّا بعد الثامن والاربعين ، وقد ولّدت نحو ثلاثين الف بيت من الشعر اليوناني . فيا للنفس القوي الفيّاض ! ويا للاطلاع الميثولوجي العجيب ! على ان ما يهمّنا خاصّة هو قيمة هذا الشعر من حيث المعلومات والاسانيد . وهي وافرة حتى يمكن القول ان ملحمة نونوز من المصادر الواجب استعمالها لتاريخ فينيقية في القرن الرابع . فهو يذكر عبادة ادونيس على شاطئ النهر المعروف باسمه

كما يذكر «الصخرة اللبنانية التي اقامت عليها ڤينوس منزلها»[1] وواضح ان المراد معبد افقا. الى غير ذلك من الاشارات المفيدة تاريخ البلاد عامة، وتاريخ بيروت خاصة. ولا يخفى ان مصادر تاريخ ذاك العصر ليس بالوافرة، فلا نهمل منها شيئاً.

ولا شكّ ان من عناصر الجمال في بيروت غابة الصنوبر. وهي قديمة جداً، كما يلاحظ ريتان، حتى ان ليس من المستغرب ان تكون بيروت مدينة لها باسمها. ومع كل هذا فكم سمعنا ونسمع من السخافات والاقاويل في اصل هذه الغابة وماضيها! أوَ لم ينسبها بعضهم الى الفرنسويين الذين اتوا لبنان على اثر مذابح سنة ١٨٦٠؟ وهذا لعمري اسخف المزاعم عن اصل تلك الغابة. على ان غيرهم من «المؤرخين» ينسبون شرف غرسها عادةً الى الامير فخر الدين. ولا بأس في ان نلاحظ هنا ان فخر الدين، والقديسة هيلانة، وزبيدة امرأة هارون الرشيد، من الاسماء المتداولة في سورية ولبنان يستعملها العامة، وبعض الخاصة، لاخفاء جهلهم فينسبون الى اصحابها ما يرونه من المباني والآثار القديمة ولا يعرفون اصحابه الحقيقيين. وعلى هذه الطريقة نُسبت القناة الرومانية في نهر بيروت الى زبيدة فقيل «قناطر زبيدة». اما غابة بيروت فقد ورد ذكرها في زمن الصليبيين، وقدّر الادريسي، احد جغرافيي العرب، مساحتها باثني عشر ميلاً مربّعاً. على انه يمكننا، بفضل نشوز، ان نرقى الى ابعد من ذلك في ذكر الغابة. فان الشاعر يشير الى «نفس لبنان المحيي الواصل الى سكان بيريت السعداء، ممتزجاً بخفيف السرو المتأيل واريجه العطر.»[2] وان موضوع النشيد الثاني والاربعين يجري في «غابة الصنوبر الجميلة». ولقد كانت غابة حقيقية اذ انها كانت تتصل حتى مرتفعات لبنان. وفيها اخذ باخوس ونبتون يتنازعان بيرُوه اللطيفة، بنت الماء الحاملة اسم بيريت. وبعد عراك شديد ظفر نبتون اله البحر، «فاتحد ببيرُوه في عرس

١) النشيد ٢٥: الايات ١٤٣ وما بعده.
٢) النشيد ٤١: الايات ٢١ وما يليه.

بحري . واخذ من ثمّ يُحبّ وطن زوجته ، ويفيل سكّانه ، ذكرًا لهذا الزواج ، المجدَ الاتيل بان ينتصروا دائمًا في المعارك البحرية . »[1]

ولتطمئنّ امّهات البيروتيين ! فلا خوف من هذه المعارك ، ولا سلاح فيها ولا دم مهراق . ان هي الّا معارك اقتصادية كان البيروتيون ولا يزالون — وهم حفدة الفنيقيين — ينتصرون فيها بسهولة . ولكن الا تجدون من الغريب ان نكون مدينين لاقوال هذا الشاعر المصري باقدم المعلومات عن غابتنا ؟

ولعلّ من المفيد بعد هذا ان نذكر ما قاله لامرتين في غابتنا نفسها :

« لقد اصبحت الغابة غاية في الجمال . وجذوع الشجر فيها تبلغ الستين والثمانين قدماً مرتفعةً دفعةً واحدة ، مظلّلةً بفيئها مساحة فسيحة . اما الارض فيغطيها مخمل رقيق من الكلأ نُثرت فيه زهور من الاحمر القاني . وهناك بصلات السوسن البرّي ، وهي كبيرة ضخمة حتى ان نعال الخيل لا تسحقها . ومن خلال اعمدة تلك الجذوع الصنوبرية ، يرى الناظر سهل بغداد (كذا والصواب : بعبدا ، لا بغداد) ومجرى النهر ، وزاوية من الخليج تشبه بحيرة صغيرة . . . وان النور لصافٍ ، والهواء لنقيّ حتى انه يمكن الانسان ان يميّز ، على عدة اميال علوًّا ، اشكال شجرات الارز او الخرنوب في الجبال ، او كبار العنبان السابحة ، دون ان تحرّك اجنحتها ، في اوقيانوس الاثير . وان هذا الحرج من الصنوبر لهو ، دون شك ، اروع مشهد شاهدته في حياتي . »

هذا ولو عاد خيال لامرتين الى هذه الاماكن ، أوَ هل يعرف الغابة التي اوحت اليه هذه الاسطر المملوءة بالاعجاب ؟

ولو وُلد نتوز في لبنان لما كان تغنى بمحاسن بيروت باوفر حماسة وهوس . حتى انه يضيف اليها محاسن قد تكون لم تعرفها ، فيسمّيها المدينة «ذات الجزُر الانيقة » . ولكن لنتركه يتكلم :

« بيرُوه فتنة الحياة ، وابنة البحر ، وميناء النعيم ، والمدينة ذات الجزر الانيقة والخضرة الغنية . ليس لها ردف برزخ ضيّق يدقّ رأسه حتى تضربه

---

١) النشيد ٥٣ : الابيات ٢١٤ وما يلي .

امواج البحرين . بل انها تمتدّ من ناحية الجنوب الحارّة حتى سفوح لبنان الوارفة الظلال ... فهي مدينة اوّلية ، بل هي اولى المدن التي عرفها الزمان المخلوق معها ، فشاهدها تظهر مع الارض معاصرتها ... وفي بيرُوه خرجت ڤينوس لاول مرة من الامواج . اما اهل قبرس فليس لهم من مستند الّا الكتب اذ يدلّون الناس على المكان الذي وضعت فيه الالاهة رجليها في خروجها من البحر . »

هذا ما خصّ المدينة . اما السكان « معاصرو الشفق ، فانهم صورة عنصر الهي ؛ وسنبلة ذهبية ، بين البشر الاولين ، نمت على اصلها الخالص . »[1]

فما رأيكم ، ايها البيروتيون ، في هذا المديح ؟

بعد ان تجتهدوا في تبديد بخوره القويّ المتكاثف ، فكّروا قليلًا في الشاعر الاجنبي الذي خصّص ثلاثة انانشيد من ملحمته ، اي ما يقرب من ١٥٠٠ بيت شعر ، ليبرهن ان مدينتكم اقدم مدن العالم ، بل اجملها ، والطفها ، وانكم اكل المخلوقات في هذا الكون ... فكّروا بهذه الغيرة وتأملوا موقفكم تجاه هذا الشاعر الذي تجهلون حتى اسمه . فلا تمثال ، ولا دمية ، ولا صفيحة تذكارية ، بل لا شارع صغير يمنع الناس من نسيانه النسيان التام ! ...

ولا نجازف اذا قلنا ان نتوز زار مدينتنا . بل اننا نذهب الى ابعد من هذا فنقول لعلّه كان يتردّد الى جامعتنا القديمة ، فيحضر درس اساتذتها . يظهر ذلك من اعتقاده الشديد بفضيلة علم الحقوق وبصلاح الشرائع الرومانية التي كان اساتذة بيريت يشرحونها ويطبّقون عليها جاعلين من مادّة تدريسهم علماً وفنّاً معاً . عرف كل ذلك ، دون شكّ ، فتأثّر به ، وبدا تأثّره بارزًا من خلال ابياته تأثّرَ شابّ متحمّس لبيريت وما فيها . « بيرُوه جذر الحياة ، ومرضعة المدن ، وكوكب لبنان ، ومقرّ البهجات ... » الى غير ذلك من النعوت التي تفيض بها قريحة نتوز كلّما خطرت على باله محاسن بيريت . على انه يعجب خصوصاً ببيريت « مقرّ العدل ، وسور الفقها ... » فيقول : « ان الاهوية الاربعة التي

---

١) النشيد ٦١ : الايات ١٥ و٤٠ و٨٨ و١١٥ ...

تهبّ على البلدان جميعاً تتأيل بالمدينة لتنقل الى العالم احكام بيريت . وان الاوقيانوس ، اول رسول للشرائع ، يحمل امواجها النافعة حتى اقاصي العالم .» ولو كان بامكان نتوز أوضع مركز جمعية الامم لا في لاهاي ، ولا في جنيف ، بل في مدينتنا . كيف لا «والشقاق ، الذي يكتسح الدول، يكفّ عن التعرّض للسلام اذا ما قامت بيريت ، الساهرة على راسة الوجود ، فحاكت الارض والبحار ، وحصّنت المدن بجادّة الشرائع التي لا تُهدم ، واخذت على نفسها تنظيم بلاد العالم . » وهو يلخص معتقده بهذا الحكم : « لرومة سلطة السلاح ، ولبيريت سلطة الحق . » !

***

رأيتم في ما تقدّم المشهد السحري العجيب الذي تتابعت فيه حياة البيروتيين السعداء على مدة ستة قرون متتالية . ولم يكن في هذا المنظر الطافح بشراً وسروراً الّا ظلّ واحد مزعج هو تتابع الهزّات الارضية . وليس من شأن الشاعر نتوز ان يعدّدها ، فضلاً عن انه توفي قبل حدوث تلك السلسلة الهائلة من الزلازل المتتابعة بين السنتين ٥٥١ و٥٥٤ . فقلبت رأساً على عقب هيئة الساحل الفنيقي . ولعلّ نبتون «زوج بيروه اللطيفة» غضب في هذا الوقت ، فاغرق «الجزُر الجميلة» التي كانت تحضن زوجته . وقد خربت الجامعة اذ ذاك ، وهلك معها ثلاثون الفاً من السكان . وهكذا كانت نهاية «بيريتوس الرومانيين السعيدة» ، ومركز «معلّمي المسكونة» ، ومدينة يوستنيانوس «الفائقة الجمال» . وقد بكى الشعراء هذا الخطب ، حتى في اقاصي اسبانية ، متأوهين على اقول «نجمة لبنان» .

اني لا اعتذر لديكم عن طول هذا الحديث ولا عن تفاهته . أوَ لسنا جميعاً عشاق بيروت ؟ أوَ يضجر العشاق من حديث احبابهم او من الحديث عنهم ؟

اما ما بقي من مدينتنا فهو ما ستسمعون وصفه الموجز بقلم الاخوين تارو ، قالا : «ان الساحل الفنيقي عاد فدخل في النسيان تيباً من ماضيه المُثقل . وهو لا يزال ذا بهجة وجاذبية ككل الاماكن التي جعل فيها الترکي حياته

المائتة ، وخطرات باله ، وقهوته ، وجامعه ... ولكن ما اشبه هذا المظهر بصوت الجلجل الى جنب الجبلة الطيمة التي تعمد شيبةً بصخب الامواج من الماضي البعيد ! »

***

حان لي الآن ان اختم هذا الحديث ، طالباً ان نجتهد بتخليص ما يمكن الاحتفاظ به من محاسن بيروت . لقد كثرت الاقتراحات في هذه الايام لتعزيز وسائل السياسة ، وهي مادّة واسعة لارباب الصحف . فان الاجانب كثيرو الفضول . ولكن كيف يمكننا ان نستدعيهم وان نستوقفهم ؟ وماذا نعرض امام عيونهم ؟ اي آثار واية تذكارات ؟ وقد عملنا طول السنين الغابرة على قلب هيئة مدينتنا فخربنا كل شيء حتى الخرائب نفسها . بل ان المناظر الطبيعية ذاتها ، تلك المناظر التي اهملها الاتراك ازدراء او جهلاً باستخدامها ، فاننا عملنا على تشويه جمالها الفطري . وهل يمكن لامرتين ان يستعيد ذكرى عدن في هذه المدينة الخالية من مزية خاصّة ؟ وماذا يبقى اليوم من غابتها الصنوبرية من غابة الصليبيين وغابة نتوز ؟ ما لا يستحق الذكر ...

لا ازال اذكر اني عرفت في ڤينا جمعية يدعونها « جمعية التجميل » ( ) غايتها اعضائها الاساسية ان يسهروا على المناظر والمشاهد الجميلة في عاصمتهم وحولها ، عاملين على حفظها من الخراب ، وعلى تجميلها وتقريبها من انظار الزوّار والسياح . واني لارى في عمل هذه الجمعية فكرةً يجب ان تُدرس ، ومثلاً يجب ان يُتّبع . هذا ما اتركه ، مسك الختام ، لاهل بيروت واصدقائها .